من أسرار البلاغة في سورة الإنسان

تأليف الدكتوره
ميرفت فرغلي محمود عبد الحافظ
مدرس البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أسرار البلاغة في سورة الإنسان)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :-

فهذا البحث يتناول موضوع "**من أسرار البلاغة في سورة الإنسان**" وقد التزمت فيه بترتيب الآيات كما وردت في هذه السورة الكريمة ، وشرح معالمها البلاغية ؛ وذلك لأن الإلتزام بترتيب الآيات مع ذكر سياقها ، وبيان معناها العام أمر مهم لمن يريد فهم بلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما سيراه القارئ في تحليلينا لسورة الإنسان ، ويحسن بي قبل البدء في بيان الأسرار البلاغية لهذه السورة الكريمة أن أعرض أموراً مهمة يقتضيها البحث، وهي على النحو التالي :-

أ- التعريف بالسورة :-

سورة الإنسان من السور المكية وآياتها إحدى وثلاثون وكلماتها مائتان وأربعون وحروفها ألف وخمسون[1] وللمغربي في التعريف بهذه السورة الكريمة كلام رصين إذ يقول : (جميع سور جزء تبارك أنزلت بمكة، أي قبل الهجرة، ومن ثم كان الخطاب الإلهي فيها موجهاً إلى المشركين، وهو غالباً ما يدور حول إثبات وجود الله تعالى والاستدلال بما خلق من الكائنات، ثم إثبات نبوة النبي ﷺ وأنه صادق في دعوى الرسالة والوحي، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم مما بين أيديهم من أهوال الحشر والحساب، وأن هذا الحشر ممكن، بل سيقع بالفعل ليلقى كل واحد من الناس جزاءه اللائق به في داره المعدة له، مع الحديث عن وصف دار النعيم ودار الشقاء وصفاً بديعاً في أسلوبه عجيباً في نسقه وتركيبه، وتتخلل الآيات تسلية النبيﷺ وتقوية قلبه الشريف، وحثه على الصبر والتجلد والتأسي بإخوانه الأنبياء السابقين الذين تقدموه، ولقوا من أممهم مثل ما لقى أو أشد)[2] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ج١ ص٤٩٣ .

(٢) تفسير جزء ص٤ للشيخ عبد القادر المغربي – مطابع الشعب .

ب- صلة سورة الإنسان بما قبلها :-

إن المتأمل في السورتين الكريمتين وهما :- (القيامة والإنسان) يرى قوة الالتحام والصلة بينهما، وهذه الصلة واضحة وقوية وسوف نعرض بعضاً منها :-

١- ففي سورة القيامة يخبر الله -عز وجل- أنه قادر على جمع الإنسانية بعد تحلل أبدانها وتفكك أوصالها ، فلا يعجزه شيء ولا يحول بين قدرته حائل فيقول : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ القيامة (٣-٤) وفي سورة الإنسان يذكر الله تعالى منكري البعث بأنه خلقهم من نطف فمزج بعضها ببعض بعد أن خلق أبا البشرية آدم من طين، ومن هنا فإن القادر على خلقهم بعد أن كانوا لا شيء ، أقدر على إحيائهم بعد موتهم وجمعهم ليوم الجمع فيقول : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ سورة الإنسان (١-٢) .

٢- يحدثنا رب العزة في سورة القيامة عن مبدأ خلق الإنسان من نطفة فيقول : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ القيامة (٣٧-٣٩)، وفي سورة الإنسان نفس الحديث عن بداية خلق الإنسان، إلا أنه في سورة القيامة قال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ فعلق به غير ما علق بالأول، ثم مرتب عليه هداية السبيل، وتقسيمه إلى شاكر وكفور ثم أخذ في جزاء كل[1] .

٣- تحدثت سورة القيامة عن الشدائد والخطوب التي يلقاها الكفرة الفجرة يوم القيامة ووصف هذا اليوم وصفاً مهولاً، إلا أنها لم تتعرض لوصف النار والجنة وصفاً تفصيلياً ، بل ذكرتهما على سبيل الإجمال في قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾القيامة(٢٢-٢٥)

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص١٤٤ الطبعة الأولى دار الاعتصام .

فجاءت سورة الإنسان عقبها بتفصيل ما أجملت ، والإطناب فيما أوجزت فوصفت الجنة وما فيها من نعيم، وأهلها وما هم فيه من نضرة وسرور في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾الإنسان(٥-٢٢) وذلك شرح قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ آية (٤) شرح وبيان لقوله سبحانه وتعالى : ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (١) .

٤- في سورة القيامة حديث عن القرآن وتنزله على النبي ﷺ وبيان أنه ﷺ كان شغوفاً به محباً لقراءته وحفظه الأمر الذي جعله ﷺ يحرك به لسانه خشية تفلته منه ، ولكن الله -عز وجل- طمأنه بأن لا يفعل ذلك لأنه -سبحانه- قد تكفل بأن يجمعه له في صدره ، ويقرأه بلسانه ، حتى إذا ما تمت قراءته عليه بوساطة جبريل ، فما على النبي ﷺ إلا اتباع قراءته والبيان والتفسير بعد ذلك على الله .

وفي سورة الإنسان نفس المعنى ، وفيه يمنن الله تعالى على عبده وخير خلقه سيدنا محمد ﷺ بتنزيل القرآن عليه؛ تقوية لقلبه وتثبيتاً لفؤاده، وإعلاماً بصدقه مهما قال فيه أعداؤه ، ورماه بالتهم خصماؤه، ثم يأمره تعالى بالصبر والإذعان لحكمه وينهاه عن طاعة من أثم من المشركين أو كفر، ويبين له العلة في إعراضهم عن القرآن وحامله فيذكر أنها تعلقهم بأعراض الحياة الدنيا ، وإهمالهم يوماً ثقيلاً ينتظرهم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، ثم يقول -سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ الإنسان (٢٣-٢٧) .

إلى غير ذلك من المناسبات التي لا تخفى على متدبر .

---

(١) جواهر البيان في تناسب سورة القرآن ص١٣٩ لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الحسني ط. مكتبة القاهرة .

أغراض السورة :-

سورة الإنسان من السور المكية ، وهي تعالج أموراً تتعلق بالآخرة، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار ، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم .

- ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

- ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ .

- ثم ذكرت السورة أيضاً أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب، فوصفتهم بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء إبتغاء مرضاة الله، والخوف من عذاب الله، وذكرت أن الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس الذي تكلح فيه الوجوه ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ .

- وأشارت بعد ذكر أوصافهم – بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة ، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

وتتباعت السورة في سرد نعيم أهل الجنة في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا

فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ ثم ختمت السورة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي أو فكر ثاقب يستضئ بنوره ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وبهذا التعريف بهذه السورة الكريمة ، وبيان صلتها بما قبلها، وأغراضها نشرع -بإذن الله- في بيان الأسرار البلاغية الموجودة في هذه السورة الكريمة، مع بيان بعض الكلمات التي تحتاج إلى توضيح. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ .

(هل أتى) لها وجهان :-

الأول:- أن تكون بمعنى قد ، وليست للإستفهام ، لأن الاستفهام محال على الله تعالى وقد قال بهذا سيبويه والكسائي والفراء وأبو عبيدة[1].

وممن جعل (هل بمعنى قد) المبرد والثمانيني والرضى والزمخشري والأشموني وابن عباس وقتادة[2] .

فتكون على هذا الوجه خبراً ، كقولك هل أكرمتك ، تقرره بأنك قد أكرمته .

أي : أقد أتى على الإنسان ... وقد تأتي (هل) بمعنى (ما) فتكون للجحد كقول الفاعل : وهل يقدر على مثل هذا غيري .

قال الفراء : (هل) تكون جحداً وتكون خبراً ، فهذا من الخبر لأنك تقول : هل أعطيتك ؟ تقرره بأنك قد أعطيته ، والجحد أن تقول وهل يقدر واحد على مثل هذا ؟[3] .

---

(١) انظر صفوة التفاسير جزء ١٩/٨٠-٨١ تأليف محمد علي الصابوني ط دار القرآن الكريم – بيروت .

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن تفسير الجزأين (عم وتبارك) للعلامة صديق حسن خان ص١٦٤ مطبعة العاصمة.

(٣) أساليب الاستفهام في القرآن للدكتور عبد العليم فودة ص١٠٧ .

الثاني: أن تكون للإستفهام الذي معناه التقرير ، وهو حمل المخاطب على أمر قد استقر عندهم فهو هنا قد جاء لتقرير من أنكر البعث من المخاطبين حينذاك ، والذين اعترفوا بأن الله -عز وجل- هو الذي خلقهم وخلق كل شيء قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الزخرف آية (٨٧) .

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الزخرف آية (٩) .

فلما كان ذلك اعتراضهم وإقرارهم لله بالخلق والإيجاد ، قالوا : نعم قد مر دهر طويل لا إنسان فيه حينئذ يقال لهم : أن الذي أوجده بعد أن لم يكن وكونه بعد العدم ، كيف يمتنع عليه بعثه وإحياءه ؟ قال مكي : "هل" استفهام تقريري، لمن أنكر البعث ، فلابد أن يقول نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه ، فيقال لهم : من أحدثه بعد أن لم يكن وكونه بعد عدمه كيف يمتنع بعثه وإحياؤه بعد موته ؟

قال الجمل : فقد جعلها للاستفهام التقريري لا للإستفهام المحض وهذا هو الذي يجب أن يكون، لأن الاستفهام لا يراد من الله إلا على هذا النحو وما أشبهه[1] .

" ويعد الوجه الثاني من أحسن ما قيل في معنى (هل) لأنه موافق للقواعد اللغوية ومؤيد بالآثار فقد روى أن الصديق – رضي الله عنه – وهو العربي الفصيح لما سمع هذه الآية قال :

باليتها كانت تمت فلا نبتلي ولو كان ذلك استفهاماً محضاً ما قال ذلك؛ لأن من شروط الاستفهام المحض أن يكون جوابه بلا أو بنعم ومن الأحسن أن يكون ذلك الجواب للخبر[2] .

هذا : والمتأمل في القرآن الكريم يرى أن الاستفهام بـ"هل"، قد جاء فيه على أصل معناه وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، وقد استعمله القرآن الكريم كثيراً ، وذلك في قوله -عز وجل- ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٤/٤٥١-٤٥٢ تأليف سليمان عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ط. بيروت – لبنان .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ٨/٢٩٠ .

وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ الأعراف آية (٤٤) ، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المائدة آية (١١٢) .

ولكن أحياناً يخرج الاستفهام عن الأصل الموضوع له وهو طلب الفهم إلى معان مجازية تفهم من السياق فقد يجئ بمعنى الإنكار ويكون معناه حينئذٍ النفي ، وما بعده منفي ويكون في الماضي بمعنى لم يكن ، وفي المستقبل بمعنى لا يكون مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (أي لا يهلك) ويجئ بمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي : انتهو ، ويجيء بمعنى التقرير كما مر في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ والاستفهام من أقسام الخطاب، وهو هنا موجه إلى غير معين ، ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية؛ لأن الاستفهام طلب الفهم والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به ذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالاً لإشراك المشركين ، وقدم هذا الاستفهام للتشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام[1] .

فجملة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ أنت تمهيداً وتوطئة للجملة التي بعدها وهي : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ... ﴾ .

(أتى) أصل الإتيان المجيء بسهولة ويسر ، وإلى هذا ترجع كل المعاني التي وردت في القرآن الكريم (أتى) وتصريفاتها ، ما عدا الآيات الآتية: قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[2] أريد بالإتيان في الآية القرب والدنو، تنزيلاً للمتوقع منزلة الواقع وقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [3] كنى بإتيان البنيان في الآية عن هدمه .

وقوله عز وجل: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [4] .

---

(١) التحرير والتنوير جـ ٣٧١/٢٩ للإمام الطاهر بن عاشور ط. الدار التونسية للنشر .
(٢) أول سورة النحل .
(٣) سورة النحل آية (٢٦) .
(٤) سورة الحشر من الآية رقم (١) .

والمراد: جاءهم عذاب الله وانتقامه من حيث لم يظنوا ويخطر ببالهم.

وقوله جل شأنه : ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [1] .

والمقصود : ولا يفلح الساحر من أي مكان جاء .

وقوله جل وعلا : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾ أي : قد مر به[2] .

و (أل) في الإنسان للاستغراق مثل قوله : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ...﴾ أي هل أتى على كل إنسان حين كان فيه معدوماً؛ والحين : مقدار مجمل من الزمان يطلق على ساعة وعلى أكثر ، وقد قيل إن أقصى ما يطلق عليه الحين أربعون سنة ، والدهر الزمان الطويل أو الزمان المقارن لوجود العالم الدنيوي[3] .

وقيل المراد بالإنسان بنو آدم ، والحين مدة الحمل ، وقيل ليس المراد بالذكر هنا الإخبار ، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الزخرف آية (٤٤)[4].

وفي قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ، قال القرطبي: (وكان شيئاً ولم يكن مذكورا وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء، أي قد مضى مدد من الدهر، وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليقة: لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم وليس بشيء حتى يأتي عليه حين والمعنى: قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة، وهذا معنى قول قتادة ومقاتل ، قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة كان بعد الإنسان)[5].

---

(١) سورة طه آية رقم (٦٩) .
(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ٧٢٦/١ بتصرف الطبعة الثامنة الهيئة العامة للتأليف والنشر .
(٣) التحرير والتنوير جـ٣٧٢/٢٩ .
(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير جـ٣٤٤/٥ تأليف محمد بن علي الشوكي – المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٩ صفحة ١١٩ ١٢٠ .

وقال الطبري : (قيل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لأنه أتى عليه وهو جسم مصور لم تنفخ فيه الروح أربعون عاماً فكان شيئاً غير أنه لم يكن شيئاً مذكورا وقالوا ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لم يكن شيئاً له نباهة ولا رفعة ولا شرف إنما كان طيناً لازباً وحماً مسنوناً) [1].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ استئناف بياني مترتب على التقرير الذي دل عليه ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لما فيه من التشويق، وهذا موضع من مواضع الفصل[2].

فصلت جملة إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ... عما قبلها؛ لأن الغرض منها هو إغناء السامع عن أن يسأل ما هي كيفية خلق الإنسان؟ فالفصل هنا للإستئناف البياني وتتمثل بلاغة الإستئناف البياني في: (إغناء السامع عن أن يسأل تعظيماً له أو شفقة عليه، أو أن لا يسمع منه شيء أي من السامع تحقيراً له وكراهة لكلامه، أو مثل لا ينقطع كلامك بكلامه، أو القصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ[3].

والتقرير يقتضي الإقرار بذلك لا محالة لأنه معلوم بالضرورة، فالسامع يتشوق لما يرد بعد هذا التقرير فقيل له إن الله خلقه بعد أن كان معدوماً فأوجد نطفة كانت معدومة ثم استخرج منها إنساناً، فثبت تعلق الخلق بالإنسان بعد عدمه، وتأكيد الكلام بحرف (إن) لتنزيل المشركين منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناماً لم يخلقوهم[4] فالتأكيد هنا مستعمل في معناه الحقيقي، والمراد بالإنسان مثل ما أريد به في قوله : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾ أي كل نوع الإنسان ف(أل) هنا المراد بها الجنس، والنطفة: الماء الذي يقطر، وهو المني وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وجمعها نطف، وأمشاج صفة لنطفة، وأمشاج مفرد كقولهم برمة أعشار وبرد أكباش...

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي جـ٢ في صفحة ٤٢٨ .
(٢) المراد من الفصل (ترك العطف بين الجمل) الإيضاح صـ٨٩ ط. دار الجبل – بيروت – لبنان .
(٣) شروح التلخيص للخطيب وآخرون جـ٣ صفحة ٥٣ وما بعدها .
(٤) التحرير والتنوير جـ٢٩/٣٧٥ .

فإن كان أمشاج في هذه الآية مفرداً كان على صورة الجمع كما في الكشاف فوصف به غير محتاج إلى تأويل[1] .

وجملة نبتليه فيها وجهان :-

إحداهما:أنها حال من فاعل خلقنا،أي خلقناه حال كوننا مبتلين له

والثاني : أنها حال من الإنسان وصح ذلك؛ لأن في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذي الحال، ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة إن كان المعنى نبتليه بتصريفه في بطن أمه نطفة، ثم علقة، وأن تكون مقدرة إن كان المعنى نبتليه: نختبره بالتكاليف؛ لأنه وقت خلقه غير مكلف[2] .

وعلى هذا تكون جملة (نبتليه) في موضح الحال من الإنسان وهي حال مقدرة أي مريدين ابتلاءه في المستقبل، أي بعد بلوغه طور العقل والتكليف.

وقد وقعت هذه الحال معترضة بين جملة "خلقنا" ، وبين "فجعلناه سميعاً بصيرا" ؛ لأن الابتلاء أي التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير، فكان مقتضى الظاهر أن يقع "نبتليه" بعد جملة "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ" ولكنه قدم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة[3] .

وفي قوله ﴿فجلعناه سميعاً بصيرا﴾ الفاء عاطفة للترتيب مع التعقيب، وجعلناه : فعل وفاعل ومفعول به، سميعاً بصيرا مفعول به ثان، وقد نزلت الكلمتان منزلة الكلمة الواحدة؛ لأنهما كناية عن التمييز والفهم؛ إذ آلتهما سبب لذلك، وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات، أي جعلناه بسبب الابتلاء حين تأهله له سميعاً بصيراً؛ ليتمكن من مشاهدة الدلائل، واستماع الآيات .

فالعطف على إرادة الابتلاء لا الابتلاء فيه، فلا يرد السؤال الآتي: كيف عطف على نبتليه ما بعده بالفاء، مع أن الابتلاء متأخر عنه؟[4].

---

(١) الكشاف جـ١٦٧/٤ ط. دار المعرفة .
(٢) إعراب القرآن وبيانه تأليف محيي الدين الدرويش جـ١٦٢/٢٩ ط. دار اليمامه – بيروت .
(٣) التحرير والتنوير جـ ٣٧٤/٢٩ .
(٤) إعراب القرآن وبيانه جـ١٦٢/٢٩ وبنفس المعنى صفوة التفاسير جـ٨٢/١٩ .

ولكن قدم الابتلاء كما سبق للاهتمام به؛ لأنه سبب السعادة والشقاوة.

وجئ بجملة ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ بياناً ل١جملة "نبتليه" تفننا في نظم الكلام .

وحقيقة الابتلاء : الاختبار لتعرف حال الشيء وهو هنا كناية(١) عن التكليف بأمر عظيم لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته .

وفرع على خلقه من نطفة أنه جعله سميعاً بصيراً، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة ولم يقل فجلعناه سامعاً بصيراً؛ لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلاً وتميزاً في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل، وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه وهذا تخلص(٢) إلى ما ميز الله به الإنسان من جعله تجاه التكليف وإتباع الشرائع وتلك خصيصة الإنسان التي ارتكزت مدينته وانتظمت جامعاته؛ ولذلك أعوقبت هذه الجملة بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ .

وجملة ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ استئناف بياني لبيان ما نشأ عن جملة (نبتليه) ولتفصيل جملة "فجعلناه سميعاً بصيراً"، وتخلص إلى الوعيد على الكفر والوعد على الشكر، وهذا موضع من مواضع الفصل.

وهداية السبيل: تمثيل لحال المرشد، والسبيل: الطريق الجادة إلى ما فيه النفع بواسطة الرسل إلى العقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي بحال من يدل السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سيره .

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركبة المشبهة بأجزاء الحالة المشبهة بها .

---

(١) الكناية : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ. الإيضاح صـ٢٨٦. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي مؤسسة المختار للنشر والتوزيع .

(٢) التخلص: المراد به الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع مراعاة الملاءمة بينهما، لأن السامع يكون مترقياً للانتقال من التشبيب المقصود كيف يكون؟ فإن كان حسناً متلاءم الطرفين وحرك نشاط السامع وأعان على إصغائه إلى ما بعده. الإيضاح صـ٣٧٢ .

فالله تعالى كالهادي والإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق، وأعمال الدين يشبه الطريق، وفوز المتتبع بهدى الله يشبه البلوغ إلى المكان المطلوب فهذه الآية من قبيل التشبيه التمثيلي[1] .

والواضح من كلام ابن عاشور أنه أجرى الآية على التشبيه التمثيلي وليس المتعدد، بتمثيل حال المولى (جل وعلا) وحال الناس بإرسال الرسل إليهم بمن يسيرون في طريق وهم في حاجة لمن يهديهم وإلا ضلوا فكان إرسال الرسل للهداية من الضلالة فالسبيل: الحياة والناس كالسائر في الطريق، والرسل دعاة على الطريق المستقيم والوحي تعليم للدعاة فتكون صورة تمثيلية كل جزئية تشبه الأخرى ومن الصورة ولا تنفك عنها .

وتأكيد الخبر بـ (إن) في قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ الغرض منه الرد على المشركين الذين يزعمون أن ما يدعوهم إليه القرآن باطل[2] فالتأكيد هنا مستعمل على مقتضى الظاهر .

وجملة "إنا هديناه السبيل فجعلناه سميعاً بصيرا" تعليلاً للإبتداء أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، والسمع والبصر كنايتان عن صفتي الفهم والتمييز كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ مريم آية (٤٢) ، وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، ووصفهما بالذكر؛ لأنها أعظم الحواس وأشرفها[3] .

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ هذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادة واختيار هما مناط التكليف .

وبين شاكراً وكفوراً طباق[4] فلما ذكر الابتلاء ناسب الإتيان هنا بقوله تعالى : ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فالطباق هنا الغرض منه الإحاطة والشمول بجميع أحوال الإنسان .

---

(١) التشبيه التمثيلي هو:- ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور. الإيضاح صـ٢٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٩/٣٧٥-٢٧٦ .

(٣) صفوة التفاسير جزء ١٩/٨٢ .

(٤) الطباق : هو الجمع بين المتضادين، أي المتقابلين في الجملة، الإيضاح صـ٣٠ ومن بلاغة النظم العربي جـ٤/١٨ .

قال البيضاوي :

ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز[1] (شاكراً وكفورا) حالان من السبيل[2] فعلى إنها حال من السبيل يكون السبيل قد وصف بالشكر والكفر على سبيل المجاز المرسل من إطلاق المسبب وإرادة السبب.

ولما كان الشكر قل من يتصف به، قال شاكراً، فعبر عنه باسم الفاعل للدلالة على قلته، ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به، ويكثر وقوعه من الإنسان قال كفوراً، فعبر عنه بصيغة المبالغة، وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لهما في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقل شكره، لكثرة النعم عليه وكثرة كفره، وإن قل مع الإحسان[3] .

وجملة قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، وذلك لأن قوله ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يثير تطلع السامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين المتردد حال الإنسان بينهما، ولقد بدأ بجزاء الكافر لأن ذكره أقرب، ويسمى هذا النوع من الفصل بالاستئناف البياني.

وأكد الخبر عن الوعيد بحرف التأكيد " إنا " لإدخال الروع عليهم لأن المتوعد إذا أكد كلامه بمؤكد فقد أذن بأنه لا هواده له في وعيده[4] .

والمعنى: أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر كما في قوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ . البلد آية (١٠)

ثم بين سبحانه ما أعد للكافرين فقال : ﴿إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيرا﴾ والجملة تعليل أيضاً؛ لأنه لما ذكر الفريقين اتبعهما الوعيد والوعد، وقرأ (سلاسلاً) بالتنوين مع كون فيه صيغة

---

(١) تفسير البيضاوي جـ٣ ص٤٧٧ .
(٢) إعراب القرآن وبيانه جـ٢٩ ص١٦٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٩/١٢٣ ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
(٤) التحرير والتنوير .

منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب؛ لأن ما قبله وهو إما شاكراً وإما كفوراً وما بعده هو أغلالاً وسعيراً[1] .

وهذه الآية من اللف والنشر المشوش[2]؛ وذلك لأنه قدم أولاً ذكر الشاكر ثم الكافر في قوله تعالى : "شاكراً وكفورا" ثم عاد بالذكر على الثاني الكافر دون الألف ففيه لف ونشر غير مرتب[3] ؛ ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة، تقريباً للموصوف من المشاهدة المحسوسة[4] .

والمعنى : إن هيأنا للكافرين المجرمين قيوداً تشد بها أرجلهم، وأغلالاً تغل بها أيهديهم إلى أعناقهم، وسعيراً أي ناراً موقدة مستعرة يحرقون بها[5] .

ثم ذكر الله -سبحانه وتعالى- ما أعده للشاكرين فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ .

وتأكيد الخبر عن جزاء الشاكرين في قوله تعالى : "إن الأبرار" لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيراً منهم في عالم الخلود ولإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة للمؤمنين والأبرار هم الشاكرون، وعبر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم[6] .

والأبرار: أهل الطاعة والإخلاص، والأبرار جمع بر أو بار: قال في الصحاح : جمع البر الأبرار وجمع البار البررة، وفلان يبر خالقه ويبرره : أي يطيعه. وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر[7].

والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب[8] .

---

(١) فتح القدير ج٥/٣٤٥ .
(٢) اللف والنشر: هو ذكر متعدد على جهة التفضيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ وثقة بأن السامع يرده إليه. الإيضاح ص٣١٣ .
(٣) صفوة التفاسير ج١٩/٨٨ .
(٤) التحرير والتنوير ص٢٩/٣٧٩ .
(٥) صفوة التفاسير ج١٩/٨٣ .
(٦) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٧٩ .
(٧) فتح القدير ج٥/٣٤٦ .
(٨) فتح القدير ج٥/٣٤٦ .

والكأس بالهمز الإناء المجعول للخمر فلا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر، وقد تسمى الخمر كأساً على سبيل المجاز المرسل[1] والعلاقة هنا الآلية حيث عبر عن الشراب بآلته وهي الكأس .

وفي قوله تعالى:- ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي يخالطها وتمزج به، والكافور قيل: هو اسم عين في الجنة يقال لها الكافوري تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. وقال قتادة ومجاهد تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب"[2] .

فالإخبار عن الخمر بأنه كافور أو يمازجها ويخالطها الكافور من قبيل التشبيه[3] البليغ، فالمشبه هنا هو الخمر، والمشبه به الكافور ووجه الشبه هو البياض وطيب الرائحة، ويعد التشبيه هنا من البليغ لحذف أداة التشبيه ووجه الشبه .

وورود فعل (كان) في جملة الصفة في قوله تعالى ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ لإفادة أن ذلك مزاجها لا يفارقها إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه، وكان هنا من باب التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي لتحقق الوقوع .

وفي قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ وعباد الله المقصود بهم الأبرار ، وهو إظهار في مقام الإضمار، وإضافة عبوديتهم لله -سبحانه وتعالى- فيها تشريف لهم .

قال البيضاوي : وفي قوله تعالى (يفجرونها تفجيراً) أي يجرونها حيث شاءوا إجراءاً سهلاً[4] .

وقال الجمل : (يقودونها حيث شاءوا من منازلهم) ونقل عن القرطبي قوله : يفجرونها تفجيرا، فيقال : أن الرجل منهم يمشي في

---

(١) المجاز المرسل : هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة بين المعنيين غير المشابهة بغية الإيضاح ٩١/٣ ، ونظرات في البيان ص٣٥ ط. السعادة من بلاغة النظم العربي ١٤٠/٣ .

(٢) فتح القدير ج٣٤٦/٥ .

(٣) تعريف التشبيه : هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، الإيضاح ص٢ ، ٣ مؤسسة المختار ـ القاهرة.

(٤) تفسير البيضاوي جـ٣ صفحة ٤٧٧ .

بيوته ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير إخدود ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره، وذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يقودونها حيث شاءوا وتتبعهم فحيثما مالوا مالت معهم[1].

فيكون على تقدير هذا الكلام إستعارة في إطلاق يفجرونها على يقودونها لشدة الملازمة ووفرة النعمة وانقيادها لهم، وهذا -اللفظ- أدل على تمام الطاعة والتسخير من يقودونها؛ لأن المقود يمكن أن يكون له شراد أما التفجير فلا.

وقال ابن عاشور: والتفجير فتح الأرض عن الماء أي استنباط الماء الغزير، وأطلق هنا على الاستقاء بلا حد ولا نضوب فكان كل واحد يفجر لنفسه ينبوعاً، وهذا من الاستعارة[2] وأكد فعل "يفجرونها تفجيرا" ترشيحاً للاستعارة[3] حيث استعير التفجير للجريان، فالمشبه الجريان، والمشبه به التفجير حذف المشبه وهو الجريان، وصرح بلفظ المشبه به وهو التفجير على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنها في الفعل فجر، وأكد فعل "يفجرونها تفجيرا" ترشيحاً للاستعارة.

والمعنى: أي يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاءون ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه[4].

وقوله تعالى:﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

فهذه الآية اعتراض بين جملة (يشربون من كأس)، وبين جملة (ويطاف عليهم بآنية من فضة) وهذا الاعتراض استئناف بياني أي – شبه كمال الاتصال.

لأنه جواب عن سؤال من شأن الكلام السابق أن يثيره في نفس السامع المغتبط بأن ينالوا مثل ما نالوا من النعيم والكرامة في الآخرة،

---

(١) الفتوحات الإلهية ج٨ ص١٩٤ ط. دار الفكر – بيروت.
(٢) الاستعارة: هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له. الإيضاح ص٢٥٤ مؤسسة المختار – القاهرة.
(٣) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٨١.
(٤) فتح القدير ج٥/٣٤٧

فيهتم بأن يفعل مثل ما فعلوا، فذكر بعض أعمالهم الصالحة التي هي من آثار الإيمان مع التعريض[1] لهم بالاستزادة منها في الدنيا[2].

ومعنى النذر في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص[3].

والتعبير بالمضارع في قوله تعالى : "يوفون" للدلالة على تجدد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإيمان، والعمل الصالح وذلك مشعر بأنهم يكثرون نذر الطاعات وفعل القربات ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنذر موجباً الثناء عليهم.

والتعريف في (النذر) تعريف الجنس فهو يعم كل نذر، وعطف على (يوفون بالنذر) قوله: (ويخافون يوماً كان شره مستطيرا) لأنهم لما وصفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم وتحقق إخلاصهم في أعمالهم؛ لأن الأعمال بالنيات فجمع لهم بهذا صحة الاعتقاد وحسن الأعمال[4].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ المراد يوم القيامة. قال قتادة: أي انتشر شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض[5].

وفي قوله "يخافون يوماً" خوفهم اليوم مجاز عقلي[6] حرى في تعلق اليوم بالخوف لأنهم إنما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة، وصيغة يخافون دالة على تجدد خوفهم ذلك اليوم وذكر فعل كان للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه، وإلا فإن شر ذلك اليوم ليس واقعاً في الماضي، وإنما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والسين والتاء في استطار للمبالغة ... والطيران مجازي مستعار لانتشار الشيء

---

(١) التعريض : المراد به أن يذكر شيئاً يدل على شيء لم يذكره . الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص١٣٣ ط. المتبني القاهرة .
(٢) التحرير والتنوير جـ ٣٨٢/٢٩ .
(٣) فتح القدير ج٣٤٧/٥ .
(٤) التحرير والتنوير ج٣٨٣/٢٩ .
(٥) فتح القدير ج٣٤٧/٥ .
(٦) المجاز العقلي هو : إسناد الفعل أو معناه إلا ملابس له غير ما هو له بتأويل. الإيضاح ص١٦ ط. دار الجبل – بيروت – لبنان .

وامتداده تشبيهاً له بانتشار الطير في الجو، ومنه قولهم: الفجر المستطير، وهو الفجر الصادق الذي ينتشر ضوءه في الأفق ، ويقال : استطار الحريق إذا انتشر وتلاحق[1] .

فالمشبه هنا انتشار الشيء وامتداده، والمشبه به الطيران حذف المشبه وصرح بلفظ المشبه به وهو الطيران على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية وفي قوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾ .

المراد: يطعمون هؤلاء الثلاثة: المسكين واليتيم والأسير الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم .

وقيل الضمير في حبه يرجع إلى الله: أي يطعمون الطعام على حب الله: أي إطعام كائناً على حب الله .

وجملة (إنما نطعمكم لوجه الله) في محل نصب على الحال بتقدير القول : أي يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين إنما نطعمكم[2] .

فهنا إيجاز بحذف فعل القول الغرض منه تصوير ما حدث، فلما كان القول مضمراً في الواقع، فأضمر في الجملة المعبرة عنه ، و(إن) للتأكيد، و(ما) كذلك، فاجتمع تأكيدان فأفاد الحصر[3] .

والقصر[4] المستفاد من إنما في قوله تعالى: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ قصر قلب مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يظن أن من أطعمهم يمن عليهم ويريد منهم الجزاء والشكر بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية[5] والقصر هنا من قصر الصفة وهي الإطعام على الموصوف وهو الله -سبحانه وتعالى- وطريق القصر (إنما) .

---

(١) التحرير والتنوير ج٣٨٣/٢٩ .
(٢) فتح القدير ج٣٤٧/٥ .
(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ج١٨٤/١ تحقيق الأستاذ/ محمد علي البجاوي ط. دار الفكر .
(٤) القصر في اللغة الحبس ، وفي الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. بغية الإيضاح ٣/٢ مكتبة ومطبعة صبيح .
(٥) التحرير والتنوير ج٣٨٥-٢٩ .

التنكير في قوله تعالى : (مسكيناً ويتيماً وأسيراً) أفاد العموم، وإلى هذا أشار الثعالبي في قوله: وأسيراً قال الحسن ما كان أسراهم إلا مشركين؛ لأن في كل ذي كبد رطبة أجراً ... وكان ببدر أسارى فأنزلت فيهم هذه الآية قال ابن رشد : والأظهر حمل الآية على كل أسير مسلم أو كافر انتهى. يعني وإن كان سبب نزولها ما ذكر فهي عامة في كل أسير إلى يوم القيامة، وقال أبو سعيد الخدري: "قال النبيﷺ مسكيناً قال فقيراً ويتيماً قال لا أب له وأسيراً قال المملوك والمسجون[1] فهذه الآية الكريمة عامة في كل مسكين ويتيم وأسير إلى يوم القيامة ".

وخص هؤلاء الثلاثة بالذكر لأن المسكين عاجز عن اكتساب قوته بنفسه، واليتيم مات أبواه وهما اللذان يكتسبان وبقى عاجزاً عن الكسب لصغره ، والأسير لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً، ولا نصراً، ولا حيلة[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام﴾ جناس اشتقاق[3] .

وذكر الطعام بعد يطعمون يفيد تأكيداً مع استحضار هيئة الإطعام حتى كأن السامع يشهد الهيئة[4] .

والوجه : الجارحة، واختصاصه بالذكر ؛ لأنه أشرف الأعضاء، فلذلك عبر به عن الذات لقوله تعالى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ الرحمن آية (٢٧) أي: ذاته، وقال البعض: أن الوجه في هذه الآية وما يماثلها، مجاز عن الرضا والثواب من الله تعالى[5] .

وقوله : ﴿لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا﴾ أي لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه الله، وهذه الجملة مقررة لما قبلها[6] .

وقوله تعالى : ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا﴾ .

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن لثعالبي ج٣/٤٢١ .
(٢) إعراب القرآن وبيانه ج٢٩ ص١٦٥ .
(٣) جناس الاشتقاق : هو أن يجمع اللفظين الاشتقاق، بمعنى أن يرجع اللفظان إلى أصل واحد في اللغة. علم البديع ص٢٨٩ تأليف د/ بسيوني عبد الفتاح قيود مؤسسة للنشر والتوزيع .
(٤) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٨٤ .
(٥) جامع البيان ج٢٩/١٣٠ للإمام محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ .
(٦) فتح القدير ج٥/٣٤٧ .

الخوف : حالة تعتري النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله، على سبيل الظن أو على سبيل العلم[1] ، ونسب العبوس إلى اليوم لا إليهم، توسعاً نحو قولهم: نهارك صائم، وإنما الصائم الشخص لا اليوم[2] على سبيل المجاز العقلي .

وإنما قوله : ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا﴾ فهو مقول لقول يقولونه في نفوسهم، أو ينطق به بعضهم مع بعض، وهو حال من ضمير (يخافون) أي يخافون ذلك اليوم في نفوسهم قائلين: ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوثاً قمطريرا﴾ فحكى قولهم: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾، وقولهم: ﴿إنا نخاف﴾ على طريقة اللف والنشر المعكوس، والداعي إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم؛ ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلى ما يقولونه للمطعمين، والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم[3].

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا﴾ أي نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين، ومعنى عبوساً: أي يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، يوم قمطريرا وقماطر: إذا كان صعباً شديداً قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء[4].

وفي قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ .

والمراد بقوله : ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه، وسروراً في القلب[5] .

---

(١) التفسير الوسيط ص٤٧١ للدكتور/ محمد سيد طنطاوي .
(٢) تفسير جزء تبارك لفضيلة الشيخ المغربي ج١٣٩ طبعة الشعب .
(٣) التحرير والتنوير ج٣٨٥/٢٩ .
(٤) فتح القدير ج٣٤٨/٥ .
(٥) فتح القدير ج٣٤٨/٥ .

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ ... الغرض منه تلوين الحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشكور، والتخلص إلى عود الكلام على حسن جزائهم[1].

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على التكاليف، وقيل على الفقر، وقيل على الجوع، وقيل على الصوم، والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله -سبحانه وتعالى- والتقدير: بصبرهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير، وظاهر هذه الأبيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه، والسبب وإن كان خاصاً كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولاً أوليا[2].

وبين قوله تعالى (لقاهم)، و(وقاهم) جناس ناقص[3] للاختلاف بين اللام والواو.

والعطف بين قوله تعالى ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾، وقوله (فوقاهم)، وقوله (ولقاهم) لاتحاد الجمل الثلاث في الفعلية والمضي ويعد ذلك من محسنات الوصل كما أن بين قوله تعالى (فوقاهم)، و(لقاهم) : إتحاد الفاصلة في الوزن والتقفيه، (والوزن والفاصلة في القرآن الكريم يكسب اللفظ قوة في التعبير؛ لأن انسياب النغم الموسيقي في الآيات وتدفقه في المعاني يعطي قوة وليناً متمم للأثر القوي الذي يحدثه القرآن في نفوس السامعين عن طريق الحس السمعي)[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٨٧.

(٢) فتح القدير ج٥/٣٤٨.

(٣) الجناس الناقص : هو ما اختلف فيه اللفظان في عدد الأحرف، ويسمى ناقصاً لأن أحد اللفظين ينقص عن الآخر حرفاً أو حرفين. علم البديع ص٢٨٤ د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ط. مؤسسة المختار.

(٤) أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص٢٤٣ – للدكتور/ محمد زغلول سلام.

قال البيضاوي : المراد بالصبر هنا، صبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات، وإيثار الأموال فهذه الآية الكريمة على وجازتها قد جمعت بين لذة الطعام ولذة اللباس في كلمتين اثنتين، مما يدل على أن هذا الكتاب ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أول سورة هود(١).

قال المغربي : وفي الآية إيجاز أخذ بأطراف الإعجاز، لأنه تعالى أشار بقوله (جنة) إلى ما يتمتع به الأبرار في دار الكرامة، من أنواع الثمار الشهية والمطاعم الهنية .. كما أشار بقوله (وحريرا) إلى ما يتمتعون به من ضروب الزينة، وهو الحرير الذي كان أنفس ملبوس عند العرب[١].

ففي هذه الآية الكريمة إيجاز قصر[٢] حيث جمعت بين لذة الطعام ولذة اللباس في كلمتين اثنتين، ومع ذلك فالمعنى واضح جلي لا نقص فيه ولا خلل، ولا زيادة تشعر السامع أو القارئ بالملل .

(والمراد بالشمس : حر أشعتها فنفي رؤية الشمس في قوله "لا يرون فيها شمساً" كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حر شعاعها فهو من الكناية التلويحية كقوله: ولا ترى الضب بها ينحجر أي لا ضب بها فتراه ولا يكون انجحاره، والزمهرير: اسم للبرد القوي في لغة الحجاز، والزمهرير: اسم البرد، والمعنى: أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال . قال ثعلب الزمهرير اسم القمر في لغة طئ أنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر[٣]

والصواب أن المراد بالزمهرير البرد الشديد ومما يدل على أن المراد بالزمهرير البرد الشديد ما روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل

---

(١) تفسير جزء تبارك ص١١٩ .

(٢) إيجاز قصر : الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، وإيجاز القصر هو ما ليس بحذف ص١٧٣ ، ١٧٧ من الإيضاح ط. مؤسسة المختار .

(٣) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٨٩ .

بعضي بعض، فجعل لها نفسين، نفساً في الصيف ونفساً في الشتاء، فأشد ما تجدون في الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير) [1].

والمراد: أن هواء الجنة معتدل، لا حر شمس يحمى، ولا شدة برد تؤذي، فنفى الشمس ونفى لازمها لقوله تعالى : "ولا زمهريرا" فكأنه قيل: لا يرون فيها حراً ولا برداً .

فالآية على هذا من الاحتباك[2] والإيجاز الذي يصل إلى المعنى من أقرب طريق، حيث دل نفي الشمس أولاً على نفي القمر، ودل نفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانياً على نفي الحر الذي سببه الشمس فأفاد هذا أن الجنة غنية عن النيرين، لأنها منيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين إلى معرفة الزمان، إذ لا تكليف فيها وأنها ظليلة معتدلة دائماً[3].

قال ابن عاشور: وفي قوله تعالى ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ المراد بها "تدلى أفنان الجنة لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بعد، وقد يكون ظلالها مجازاً مرسلاً عن الأفنان بعلاقة اللزوم .

والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم وذلك مما يزيدهم بهجة وحسناً، وهو في معنى قوله تعالى ﴿قطوفها دانية﴾؛ ولذلك عطف عليه جملة ﴿وذللت قطوفها تذليلا﴾ أي سخرت لهم قطوف تلك الأدواح وسهلت لهم بحيث لا التواء فيها ولا صلابة تتعب قاطفها ولا يمتطون إليها بل يجتنونها بأسهل تناول فاستعير التذليل للتيسير كما يقال فرس ذلول أي مطوع لراكبه، وبقرة ذلول أي ممرنة على العمل) [4] .

والاستعارة هنا تصريحية لأنه صرح بلفظ المشبه به وهو التذليل وحذف المشبه وهو التيسير، وتبعية لأنها في الفعل؛ وكذلك يوجد في الآية طباق بين شمساً وزمهريرا .

---

(١) صحيح البخاري ج١٤٦/٤ كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة ط. الشعب.

(٢) الاحتباك: وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول انظر الإتقان في علوم القرآن ج٧٩/٢ ط. دار المعرفة بيروت، والبرهان في علوم القرآن ج١٢٩/٣ ط. دار المعرفة – بيروت .

(٣) انظر فتح القدير ج٣٤٩/٥ ، والآلوسي ج١٥٨/٢٩ ، والسراج المنير للخطيب الشربيني ج٤٣٥/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ج٣٩٠/٢٩

وجملة قوله تعالى: ﴿ويطاف عليهم بآنية﴾ عطفت على جملة قوله تعالى ﴿يشربون من كأس﴾ للتناسب بين الجملتين في الفطية والمضارعة، ويعد ذلك من أحسن أحوال الوصل حيث أعاد الكلام إلى صفة مجالس شرابهم.

كما تعد هذه الجملة بيان لما أجمل في جملة: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس﴾ إنما عطفت عليها لما فيها من المغايرة مع الجملة المعطوف عليها من صفة آنية الشراب، ولهذه المناسبة أعقب ذكر مجالس أهل الجنة بذكر ما يستتبعه مما تعارفه أهل الدنيا من أحوال البذخ والترف بشرب الخمر ويدير عليهم آنية الخمر سقاه، والإناء اسم لكل وعاء يرتفق به، وقال الراغب: ما يوضع فيه الشيء[1] .

وتشمل الآنية الكؤوس، ومن فضة بيان للآنية، وعطف قوله تعالى: ﴿وأكواب كانت قواريرا﴾ على آنية في قوله تعالى: ﴿ويطاف عليهم بآنية﴾ من عطف الخاص على العام وهذا لون من ألوان الإطناب .

وقد ورد لفظ أكواب في القرآن الكريم مجموعاً كما في قوله: ﴿وأكواب كانت قواريرا﴾، وقوله تعالى: ﴿فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعه﴾ سورة الغاشية آية (١٤)، ولم يأت به مفرداً؛ لأنه إذا أتى هذا اللفظ مفرداً لم يكن فيه الرقة والظهور في النطق ولا حسن التناسب والإنكشاف كما هو في حال الجمع وهذا ما أشار إليه الرافعي في قوله: وكذلك لفظة (الكوب) استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لم يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والإنكشاف وحسن التناسب كلفظ أكواب الذي هو الجمع[2] .

وفي قوله: ﴿كانت قواريرا﴾ معناه تكونت لا أنها كانت قبل قوارير، فهي من قوله تعالى ﴿كن فيكون﴾ فتكوين الله سبحانه وتعالى تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن[3] ، وأوثر ذكر آنية الفضة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البياض ، والقوارير : جمع قارورة ... والغالب أن اسم القارورة للإناء من الزجاج وقد يطلق على ما كان من زجاج وإن لم يكن إناء كما في قوله تعالى ﴿قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾ سورة

---

(١) إعراب القرآن وبيانه جزء ٢٩/ص١٦٩ تأليف محيي الدين الدرويش دار اليمامة دمشق – بيروت .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٢٥ للرافعي .

(٣) الفتوحات الإلهية تفسير الجلالين جـ٤/٤٥٨ ط. دار التراث العربي بيروت – لبنان.

النمل آية (٤٤) ، وقد فسر قوله: (قواريرا) في هذه الآية بأنها شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والدقة حتى كأنها تشف عما فيها[١] .

والمراد بقوله تعالى: (قدروها تقديرا) قال مجاهد وغيره: أتو بها على قدر شربهم بغير زيادة ولا نقصان إذ لا عطش في الجنة قال الكلبي: ذلك ألذ وأشهى[٢] ، وفي قوله تعالى: (يسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا) قال الألوسي: والمشهور أنها -أي الكأس- تطلق حقيقة على الزجاجة، إذا كانت فيها خمر ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة[٣].

ولما ذكر الله تعالى – أن هذا الشراب مخلوط بالزنجبيل، وهو معروف بطعمه اللاذع دفع توهم ذلك بذكر السلسبيل فقال ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلا﴾ بسلامة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يعني أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة، لأن نقيض اللذع: هو السلاسة ، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، كان في غاية السلاسة والذي أفاد هذا هو زيادة الباء في التركيب[٤] .

ولما فرغ سبحانه من وصف شرابهم، ووصف آنيتهم، فوصف من يسقونهم ذلك الشراب فقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ .

والمعنى: إن الذين يطوفون على أولئك البررة بالآنية والأكواب غلمان صباح الوجوه لا يؤثر فيهم الزمن وطوله، ولا الشيخوخة تعتريهم لكونهم مخلدين أي باقين دائمين على سن الصبا والشباب لا يتحولون عنه بل أن الناظر إليهم والمحدق فيهم يراهم لبهاء وجوههم وانتشارهم في خدمة الأحباب كاللؤلؤ المبثوث على أبسط الحرير، الأمر الذي يزيد النفس سروراً ويكسب العين رونقاً وضياء .

وقال تعالى: هنا "ويطوف عليهم" وهناك "ويطاف عليهم" لأن القصد هناك وصف ما يطاف به من الأواني، دون وصف الطائفين ؛ لذلك بني الفعل مقصوداً به ذكر المفعول لا الفاعل .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٩٢ .
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ص١٧٦ .
(٣) روح المعاني ج٢٩/١٥٤ الطباعة المنيرية – بيروت .
(٤) الكشاف ج٤/١٩٨ ط. الحلبي .

وأيضاً لأن الله -عز وجل- بعد وصف الإناء الذي تسبق العين إليه، وصف ما يحويه من مشروب وطيبه فقال "ويسقون" ؛ ولأن قوله "ويطاف" جاء أثر قوله: "وذللت" المبني للمفعول كذلك .

أما هنا فالقصد وصف الفاعلين الطائفين لذا وجب ذكرهم لتعلق الصفة بهم من كونهم باقين دائمين على هيئة الصفاء لا يشيبون، وأن الرائي لهم يراهم كاللؤلؤ المنثور في صفاء ألوانهم وضياء وجوههم وجريان ماء النعيم المترقرق فيهم لذا كان من المناسب ألا يسمى الفاعل هناك ويسمى هنا[1] .

وقوله: (ولدان) جمع "وليد" وأصل وليد "فعيل" بمعنى مفعول ويطلق الوليد على الصبي مجازاً مشهوراً بعلاقة ما كان، لقصد تقريب عهده بالولادة، وأحسن من يتخذ للخدمة الولدان ، لأنهم أخف حركة وأسرع مشياً، ولأن المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم، ووصفوا بأنهم (مخلدون) للاحتراس[2] مما قد يوهمه اشتقاق "ولدان" من أنهم يشيبون ويكتهلون أي لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوماً وإلا فإن خلود الذوات في الجنة معلوم فما كان ذكره إلا لأنه تخليد خاص[3].

ففي قوله ﴿ولدان﴾ مجاز مرسل علاقته باعتبار ما كان وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ .

جاء النظم الكريم على صورة الخطاب، ليبعث الشوق في نفوس المخاطبين إلى مشاهدة تلك الأحوال عليهم يعملون عمل أولئك الأبرار فيفوزون فوزهم بالنظر إلى الولدان والتمتع بما في الجنان .

وشبهوا بالدر المنثور تشبيهاً مقيداً فيه المشبه (الولدان) بحال خاص وهو حسن المنظر مع التفرق، وذلك للدلالة على أنهم غلمان حسنة وجوههم، صافية ألوانهم نشيطة أبدانهم لا يتوانون في خدمة أهل الجنة أو يتكاسلون أضف إلى ذلك أن اللؤلؤ إذا كان مفرقاً على الأمكنة البهية يكون أحسن منظراً؛ لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات

(٢) الاحتراس: وهو أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه. الإيضاح ص١٩٤ .

(٣) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٩٧ .

قال الرازي في كيفية التشبيه وجوه :-

الأول: أنه سبحانه شبههم في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم لأن الله يقول: "ويطوف عليهم" وهذا يفيد أنهم متناثرون .

الثاني: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتشر من صدفة لأنه أحسن وأكثر ماءً .

الثالث: قال القاضي: هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في النظر، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون مخالفاً للمجتمع فيه[1] .

قال الشهاب:- في قوله تعالى:﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ الكبر مستعار من عظم الحجم لسعة المسافة[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ تشبيه في قوله: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ حيث شبه نعيم الجنة بأحوال الملك الكبير المتنعم به، ويعد هذا اللون من التشبيه البليغ حيث لم تذكر فيه أداة التشبيه، ولا وجه للشبه، والغرض من التشبيه هنا تقريب المشبه لمدارك العقول .

"ولفظ الكبير مستعار للعظيم وهو الشيء الزائد على النعيم لما فيه من المنزلة الرفيعة وتذليل الصعاب"[3] .

والاستعارة هنا من قبيل التصريحية؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبه وهو الكبير، وحذف المشبه وهو النعيم، وأصلية لأنها في الاسم .

" وفي التعبير بقوله: (عاليهم) دون عليهم، إشعار بأن ذلك اللباس بارز ظاهر على أجسامهم، يلبسونه فوق ثيابهم الباطنة، زينة لهم وجمالاً لظواهرهم، حيث أنهم يلبسون رقيق الحرير الذي هو السندس من الداخل لنعومته وطراوته، وفوق غليظ الحرير الذي هو الإستبرق، واللون الأخضر الذي يسر الناظرين، قال الزجاج: السندس والإستبرق

---

(١) التفسير الكبير ج٨/٣٠٠ .
(٢) حاشية الشهاب ج٩/٣٥٩ .
(٣) حادي الأرواح ص١٦١ لابن القيم .

نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به[1].

وقوله تعالى: ﴿وحلو أساور من فضة﴾ معطوف على قوله: ﴿ويطوف عليهم﴾ والعطف هنا للاتحاد في المضارعية من حيث المعنى؛ لأن قوله تعالى: ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وإن كان ماضياً لفظاً، إلا أنه مستقبل معنى، وإبرازه بصورة الماضي، لتحققه وعدم الارتياب في مجيئه؛ لأنه لا يرتاب في مجيئه إلا معاند.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ احتراس لما قد يتبادر إلى الأذهان من أن شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا من الغول وسوء القول والهذيان فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿شراباً طهورا﴾ بصيغة المبالغة في الطهارة أي هذا الشراب منزها عما في غيره من الخبائث.

وإسناد السقيا إلى الله -سبحانه وتعالى- في قوله: "وسقاهم ربهم" فيه إظهار لكرامتهم.

ومن البلاغة ورود بعض الكلمات الأعجمية في هذه السورة الكريمة، وهذه الكلمات هي:-

"كافورا" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وزنجبيلا في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾، سلسبيلا في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، وسندس وإستبرق في قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

وقضية الكلمات الأعجمية قضية كبرى وردت في معظم كتب التفسير، وقد رأيت من المناسب أن اقتصرت في بحثي هذا على ذكر معانيها، وما ورد من هذه القضية في مجال البلاغة فقط. ففي الآلوسي عند تفسير قوله تعالى "زنجبيلا" هذه العبارة يقول: "وعده بعضهم في المعربات".

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩/٣٩٨.

وعن السلسبيل يذكر عن ابن الاعرابي قوله: "لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن" .

وعند تفسير السندس، يقول: وهو معرب بلا خلاف بين أهل اللغة على ما في القاموس وغيره، وزعم بعضهم أنه مع كونه معرباً، أصله سندي بياء النسب، لأنه يجلب من السند وحين تعرضه لقوله: "إستبرق" قال: وهو اسم أعجمي معرب عند جمع أهله بالفارسية استبره، وفي القاموس معرب: استبره، وحكى ذلك عن ابن دريد وأنه قال إنه سرياني... وقيل عربي وافقت لغة العرب فيه لغة غيرهم[1] .

والإمام الجويني يرى أن وقوع المعرب في القرآن الكريم له فائدة في مجال البلاغة والبيان، قد لا يشعر بها كثير من الناس لخفائها بما تشتمل عليه من دقة البيان وسر الإعجاز فيقول:

(فإن قيل: إن إستبرق ليس بعربي وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم منها بالوعد الجميل، ويخوفهم بالعذاب الوبيل، لا يكون حثه على وجه الحكمة..إلى أن يقول: ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور الأماكن الطيبة، ثم المآكل والمشارب، ثم الملابس الرفيعة.. ، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن الثقيل وربما يكون الخفيف أرفع من الثقيل الوزن وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذٍ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء ثم إن الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ الواحد موضوع له صريح، أولاً يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى لأنه أوجز وأظهر في الفائدة، وذلك (إستبرق) فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة...وإن ذكره بلفظتين فإنه يكون قد أخل بالبلاغة لأنه ذكر اللفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أن لفظ (إستبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه[2].

---

(١) روح المعاني ج٢٩/١٦٠-١٦٢.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١٧٩/١ ط. دار المعرفة بتصرف .

والإمام الطبري يرى أن الكلمات الأعجمية إذا اتفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية فليس من المنطق أن نقول أنها غير عربية بل هي عربية أعجمية أو ذلك في قوله: "الصواب في ذلك عندنا أن يسمى عربياً أعجمياً، أو حبشياً عربياً إذا كانت الأمتان له مستعملتين"[1].

وبهذا يتضح لنا أن هذه الكلمات تدل على إعجاز القرآن الكريم وإيجازه إذ لو أريد استبدال هذه الكلمات بمفردات أخرى فإنها لا تفي بالغرض المقصود منها إلا إذا شرحت في جملة أو جمل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، أي يقال لأهل الجنة وإن واسمها، وجملة كان خبرها ولكم متعلقان بجزاء[2].

وهذا الكلام مقول قول محذوف قرينته الخطاب إذ ليس يصلح لهذا الخطاب بما تقدم من الكلام إلا أن يكون المخاطبون هم الأبرار الموصوف نعيمهم، والقول المحذوف يقدر فعلاً في موضع الحال من ضمير الغائب في (سقاهم) نحو يقال لهم، أو يقول لهم ربهم أو يقدر اسماً هو حال من ذلك الضمير نحو: مقولاً لهم هذا اللفظ أو قائلاً لهم هذا اللفظ، والإشارة إلى ما يكون حاضراً لديهم من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات، وذكر فعل (كان) للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا منة عليهم بما لم يستحقوا فإن من تمام الإكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه، أي هو جزاء حقاً لا مبالغة في ذلك، وعطف على ذلك قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ علاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأن سعيهم الذي كان النعيم جزاء عليه، هو سعي مشكور، أي مشكور ساعيه، فأسند الشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم سيل منعم، ولك أن تجعل "مشكوراً" مفعولاً حقيقة عقلية لكن على طريقة الحذف والإيصال أي مشكوراً عليه[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ استئناف ابتدائي للانتقال من

---

(١) تفسير الطبري ج١ ص١٦ تحقيق د/ محمود أحمد شاكر.
(٢) إعراب القرآن وبيانه ج١٧٢/٢٩.
(٣) التحرير والتنوير ج٣٥٣/٢٩.

الاستدلال على ثبوت البعثة بالحجة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين .

والمراد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ أي فرقناه في الإنزال ولم ننزله جملة واحدة، وقيل المعنى: نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضائه، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته[1] .

والصبر: ثبات النفس وتحمل المشقة والآلام ونحوها، ومصدر الصبر ما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق ويعدي فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف على يقال: صبر على الأذى، ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدي إلى اسم ما يتحمل الصابر باللام ومناسبة المقام ترجيح إحدى التعديتين فلا يقال: اصبر على الله ويقال: اصبر على حكم الله أو لحكم الله .

فيجوز أن تكون اللام في قوله: "الربك" لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ سورة الطور آية (٤٨) .

وقوله: ﴿واصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[2] نجد إتحاد الفواصل في الوزن والتقفية .

في قوله: "لؤلؤ منثورا...شراباً طهورا...وكان سعيكم مشكورا...آثماً وكفورا" والمراد بالآثم عتبة فإنه كان راكباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق وأن المراد بالكفور الوليد الذي كان غالباً في الكفر شديد الشكيمة في العتو مع أن كليهما آثم وكافر...وأفاد التعبير بأمر النهي عن طاعتهما معاً بالأولى ولو عطف بالواو لأفهم جواز طاعة أحدهما وليس مراداً .

قال الزجاج أو هنا أوكد من الواو لأنك لو قلت لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاصي فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل لأن يعصى[3] .

---

(١) فتح القدير والتنوير جـ٢٩/٤٠١ .
(٢) التحرير والتنوير ج٢٩/٢٩٩ .
(٣) الفتوحات الإلهية ج٤/٤٦١ .

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

المراد بقوله تعالى: "بكرة وأصيلا" بكر أصل الكلمة هي البكرة التي هي أول النهار، (وأصل): بالغدو والآصال أي العشايا، يقال للعشية أصل أصيلة[1] فبين بكرة وأصيلا طباق الغرض منه المداومة على ذكر الله.

"ومن الليل" من تبعيضه أي واسجد أي صل له بعض الليل وباقية تستريح فيه بالنوم، وقوله فاسجد له الفاء دالة على معنى الشرطية والتقدير: مهما يكن من شيء فصل من الليل وهو يفيد أيضاً بتأكيده الاعتناء التام.

وقوله "وسبحه ليلاً طويلا" فيه دليل على عدم ما قاله بعض أهل علم المعاني والبيان أن الجمع بين الحاء والهاء مثلاً يخرج الكلمة عن فصاحتها وجعلوا من ذلك قول الشاعر :

كريم متى أمدحه والورى معي وإذا ما لمته وحدي

البيت لأبي تمام ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج له عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ موقع (إن) موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية...، وهؤلاء إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم...إذا أطلق "هؤلاء" في القرآن دون سبق ما يكون مشار إليه فالمقصود به المشركون كما في قوله تعالى ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ سورة الأنعام آية (٨٩) ، وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ سورة هود آية (١٠٩) ، وصيغة المضارع في (يحبون) تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم ودينهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة[3].

---

(١) مفردات غريب القرآن ص١٩ ، ص٥٧ تحقيق محمد كيلاني ط. دار المعرفة.
(٢) الفتوحات الإلهية ج٤٦٢/٤ وبنفس المعنى إعراب القرآن وبيانهج١٧٥/٢٩-١٧٦.
(٣) التحرير والتنوير ج٤٠٨/٢٩ .

وفي قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ مقابلة بين المحبة والترك والدنيا والآخرة .

قال ابن عاشور: (اليوم الثقيل: هو يوم القيامة، ووصف بالثقيل على وجه الاستعارة لشدة ما يحصل فيه من المتاعب والكروب فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطيع حمله)[1] .

في قوله تعالى: (يوماً ثقيلا) استعارة تصريحية فقد استعير الثقل لشدة هول ذلك اليوم، والثقل في القرآن يستعار للشدة والعسر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ سورة المزمل آية (٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ .

افتتاح الجملة بالمبتدأ المخبر عنه بالخبر الفعلي دون أن تفتتح بخلقناهم أو نحن خالقون، لإفادة تقوية الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنيين بهذا الكلام وإن لم يكن خطاباً لهم لكنهم هم المقصود منه، وتقوية الحكم بناء على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة من يشك في أن الله خلقهم حيث لم يجروا على موجب العلم فأنكروا أن الله يعيد الخلق بعد البلى فكأنهم يسندون الخلق الأول لغيره، وتقوى الحكم يترتب عليه أنه إذا شاء بدل أمثالهم بإعادة أجسامهم فلذلك لم يحتج إلى تأكيد الجملة "وإذا شئنا بدلنا أمثالهم" استغناء يتولد معناها عن معنى التي قبلها وإن كان هو أولى بالتقوية على مقتضى الظاهر[2] .

وفي قوله تعالى: "وشددنا أسرهم" بمعنى ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب[3] .

وقال ابن عاشور: (والشد: الإحكام وإتقان ارتباط الجسد بعضها ببعض بواسطة العظام والأعصاب والعروق إذ بذلك يستقل الجسم ، الأسر: الربط وأطلق هنا على الإحكام والإتقان على وجه الاستعارة)[4] .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩/٤٠٨ .
(٢) التحرير والتنوير ج٢٩/٤٠٩ .
(٣) الفتوحات الإلهية ج٤/٤٦٢ .
(٤) التحرير والتنوير ج٢٩/٤٠٩ .

فالأسر هنا بمعنى الربط والمراد به إحكام وإتقان صنع الله، ففي هذه الآية الكريمة استعارة تصريحية حيث صرح بلفظ المشبه به وهو الأسر، وحذف المشبه وهو الإحكام والإتقان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ المعنى "لو أردنا أهلكناهم، ثم بدلنا خيراً منهم يكونون أعبد لله وأطوع، وفي الآية تهديد ووعيد[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ تذييل[2] أي تذكرة لمن يتذكر فإن كان من منكري البعث آمن به وإن كان مؤمناً استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما فاته وبهذا العموم الشامل لأحوال المتحدث عنهم وأحوال غيرهم كانت الجملة تذييلاً، والتذكرة: اسم لمصدر الذكر بضم الذال الذي هو خطور الشيء في البال، فالتذكرة: الموعظة لأنها تذكر الغافل عن سوء العواقب، وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض على التدبير فيه والتفكر على طريقة التعريض، وفرع على هذا التحريض التعريضي تحريض بقوله: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ أي من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة[3].

قال ابن عاشور: (وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ استعارتان حيث استعار لفظ السبيل للسلوك، فالمشبه السلوك والمشبه به السبيل حذف المشبه وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

والسبيل أيضاً مستعار لسبب الفوز بالنعيم؛ لأن المراد بالسبيل الطريق المؤدية إلى رضا الله -سبحانه وتعالى- والفوز بنعيمه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حذف مفعول (تشاؤون) لإفادة العموم والتقدير: وما تشاؤون شيئاً أو

---

(١) صفوة التفاسير ج١٩/٨٨.

(٢) التذييل: مصدر "ذيل" للمبالغة، وهي لغة جعل الشيء ذيلاً للآخر. واصطلاحاً: أن يؤتي بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول، تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل لظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند فهمه. البرهان في علوم القرآن ٣/٦٨ ط. الحلبي.

(٣) التحرير والتنوير ج٢٩/٢٧٧-٢٧٨.

مشيئاً وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة أي: ما تشاؤون شيئاً في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال)[1].

ويقول المرحوم/ سيد قطب في قوله تعالى: (وما تشاؤون...) فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد، ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء مما يلتجئون إليه يطلبون عونه على الطاعة، وتوفيقه إلى الهدى[2].

وأعقب وصف هذه المشيئة بالتذييل في قوله: (إن الله عليماً حكيما) لمناسبة هاتين الصفتين وهما العلم والحكمة لمشيئة -سبحانه وتعالى- ، وتقديم لفظ العلم على لفظ الحكمة من تقديم السبب على المسبب .

قال الإمام ابن كثير: (أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: "إن الله عليماً حكيماً")[3] .

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وما تشاؤون﴾ بالتاء التفاتاً[4] عن الغيبة في خلقنا هم إلى الخطاب في تشاؤون"[5] ، وجملة قوله تعالى: "يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما" .

مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) إذ يتساءل السامع على أثر مشيئة الله في حال "من اتخذ إلى ربه سبيلا" ومن لم يتخذ إليه سبيلا، فيجاب بأنه يدخل في رحمته من شاء أن يتخذ إليه سبيلا وأنه أعد لمن لم يتخذ إليه سبيلا عذاباً أليماً وأولئك هم الظالمون"[6].

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩/٤١٢-٤١٣ .
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج٢٩/٣٧٨٧ ط. دار الشروق.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٥٩/٣١٩ ط. الشعب .
(٤) الالتفات هو: التعبير عن معنى بطرق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، والطرق الثلاثة هي: التكلم والخطاب والغيبة. خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص٢٥٠ الناشر – مكتبة وهبه .
(٥) الفتوحات الإلهية ج٤/٤٦٣ .
(٦) التحرير والتنوير ج٢٩/٤١٦ .

وفي قوله تعالى: "والظالمين أعد لهم عذاباً أليما" قد أملى لهم، وأمهلهم لينتبهوا إلى هذا العذاب الأليم، وهذا الختام يلتئم مع الطلع، ويصور نهاية الابتلاء، الذي خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج، ووهبه السمع والأبصار ، وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار[1].

وتمتاز هذه السورة الكريمة إنه بين مطلعها التئام تام وتوافق وانسجام بديع وهذا يسمى في علم البلاغة ببراعة الاستهلال، فالمطلع يتحدث عن خلق الله -سبحانه وتعالى- للإنسان من نطفة أمشاج، ووهبه السمع والأبصار، وهداه السبيل إما شاكراً وإما كفورا .

والختام يصور نهاية هذه الابتلاء، فإن كان من الشاكرين أدخله الله في رحمته، وإن كان من الكافرين أعد الله له عذاباً أليماً وهذا يمسى بحسن الانتهاء وجميع سور القرآن الكريم تمتاز ببراعة استهلالها، وحسن ختامها.

---

(١) في ظلال القرآن ج٢٩/٣٧٨٧ .

الخاتمة

بعد هذه الوقفات مع الأسرار البلاغية في سورة الإنسان يتضح ما يلي :-

أولاً: إن بلاغة هذه السورة الكريمة جاءت متناسقة مع موضوعات السورة، ومقاصدها، وأنها تشع في حروفها، وكلماتها، وتراكيبها بأسرار بلاغية عظيمة لا يهتدي إليها المتدبرون من المؤمنين والراسخون في العلم منها .

ثانياً: إن هذه السورة الكريمة مع وجازتها قد اشتملت على علوم البلاغة الثلاثة:

فمن علم المعاني : المجاز العقلي - التقديم - الالتفات - التعبير بالماضي بدل المستقبل - القصر - الإنشاء - الفصل والوصل - الإيجاز والإطناب .

ومن علم البيان : التشبيه والمجاز - الاستعارة - المجاز المرسل - الكناية والتعرض .

ومن علم البديع : المحسنات المعنوية: الطباق - المقابلة - التذييل - اللف والنشر - الاحتباك .

والمحسنات اللفظية : الجناس - اتحاد الفواصل في الوزن والتقفية - براعة الاستهلال - التخلص .

ثالثاً : ومن البلاغة وقوع المعرب في ألفاظ القرآن الكريم، وقد حظيت هذه السورة الكريمة ببعض الكلمات المعربة (كالكافور، الزنجبيل، السلسبيل، والسندس، والإستبرق) وقد أدت هذه الكلمات الغرض منها بإيجاز ووضح ، وإذا أردنا استبدال هذه الكلمات بغيرها فلابد من شرحها بجملة أو جمل حتى تفي بالغرض المقصود منها .

رابعاً: إن الدارس لبلاغة القرآن الكريم يرى أن نظم القرآن الكريم يقتضي كل ما فيه من بلاغة اقتضاء طبيعياً، إذ لا يمكن استبدال موضع بلاغي بآخر بأي حال من الأحوال، ولا كلمة بكلمة، بل لا يمكن استبدال حرف مكان حرف، وهذا هو سر إعجاز القرآن الكريم إعجازاً أبدياً .

والله أسال أن أكون قد وفقت في الوقوف على أسرار البلاغة في هذه السورة الكريمة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع والمصادر

١- الإتقان في علوم القرآن – لجلال الدين السيوطي ط. دار المعرفة . بيروت . لبنان

٢- أثر القرآن في تطور النقد الأدبي – تأليف د/ محمد زغلول سلام.

٣- أساليب الاستفهام في القرآن للدكتور/ عبد العليم فودة .

٤- أسرار ترتيب القرآن للسيوطي الطبعة الأولى . دار الاعتصام.

٥- إعراب القرآن وبيانه تأليف محيي الدين الدرويش ط. دار اليمامه . بيروت لبنان .

٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ط. دار الفكر العربي ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م .

٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي عبد الله بن عمر بن محمد علي البيضاوي سنة ٦٨٥هـ .

٨- الإيضاح للخطيب القزويني ط. دار الجبل . بيروت . لبنان

٩- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ط. مكتبة صبح ١٣٩٢هـ

١٠- البرهان في علوم القرآن . للزركشي ط. الحلبي .

١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – للفيروزبادي

١٢- التحرير والتنوير بن عاشور ط. الدار التونسية للنشر .

١٣- تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ط. الشعب .

١٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط. الشعب .

١٥- التفسير الكبير للفخر الرازي .

١٦- التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي .

١٧- تفسير البيضاوي ط. الرشيد سوريا، ومؤسسة الإيمان بيروت ط. أولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر ط. دار المعارف القاهرة.

٢٠- جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الحسنى ط. مكتبة القاهرة.

٢١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي – تحقيق / أبو الفضل محمد العماري الإدريسي الحسني ط. دار الكتب العلمية-بيروت – لبنان .

٢٢- حادي الأرواح لابن القيم .

٢٣- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ط. دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٢٤- خصائص التراكيب تأليف أ.د/ محمد حسانين أبو موسى. مكتبة وهبه .

٢٥- درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات للخطيب الإسكافي ط. أولى مطبعة السعادة .

٢٦- روح المعاني للألوسي الطباعة المنيرية . بيروت .

٢٧- زاد المسير في علم التفسير للجوزي ط. المكتب الإسلامي .

٢٨- السراج المنير للخطيب الشربيني .

٢٩- شروح التلخيص للخطيب القزويني وآخرون ط. دار الروز – بيروت .

٣٠- صحيح البخاري ط. الشعب .

٣١- صفوة التفاسير تأليف محمد علي الصابوني ط. بيروت . دار القرآن الكريم .

٣٢- علم البديع تأليف أ.د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ط.مؤسسة المختار للتوزيع والنشر .

٣٣- فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة صديق حسن خان ط. العاصمة .

٣٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد علي الشوكاني المكتبة الفيصلية . مكة المكرمة .

٣٥- الفتوحات الإلهية تأليف سليمان بن عمر العجيلي الشافعي ط. بيروت لبنان .
٣٦- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ط. المتنبي القاهرة .
٣٧- في ظلال القرآن لسيد قطب ط. دار الشروق .
٣٨- الكشاف للزمخشري ط. دار المعرفة .
٣٩- معجم ألفاظ القرآن الكريم تأليف محمد فؤاد عبد الباقي ط. الثامنة الهيئة العامة للتأليف والنشر .
٤٠- معاني القرآن للفراء ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤١- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي تحقيق الأستاذ/ محمد علي البجاوي ط. دار الفكر .
٤٢- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق / محمد سيد كيلاني ط. دار المعرفة – بيروت .
٤٣- من بلاغة النظم العربي تأليف أ.د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفه ط. الطباعة المحمدية .
٤٤- نظرات في البيان تأليف أ.د/ عبد الرحمن الكردي ط. السعادة